نظرات في النفس والحياة

— ٦ —

تكملة نظرات أناتول فرانس

(١) كان جان ايلو (الثمالك) قليل الكلام ولكن كلامه كله كان مقصوراً على ذكر المصائب ووصفها كسائر أقرانه الذين يتلقمهم البحر وهم يصطادون السمك وعلى كثرة ذكره المصائب لم أجده إلا واعظاً مجتثاً . كأنما يجد فيها كلها خيراً لأنها أمرٌ مقدّر — وهذا الثمالك الجاهل يذكرني حكمة جورجي كبير أدباء الألمان التي وصل إليها بالثقافة ورياضة النفس بعد العهد الذي أمضاه عبد العاصفة والشدة وهي قوله : الرجل السعيد هو الذي يطمئن الى ما يريده القضاء كأنما هو الذي يريده ويرغب فيه اذا كان أمراً محتوماً . وقد وصل جان ايلو الى مثل هذه الحالة بالتسليم والغريزة أو السادة .

(٢) وكانت خادمتنا ميلاني تمر كل يوم على صاحبات الدكاكين وبشرتها أن تحادثهن وكان كل حديثهن مقصوراً على ذكر الآسقام والأمراض وأنواعها وآلامها وأورامها كأنما في وصفها لذة لهن . فاذا انتهين من حديث الأمراض والجن حديث الجرائم التي تقشعر منها الأبدان — وهكذا تُرفّه الحياة عن بعض الناس حتى بأنواع غريبة وألوان من أحاديث النكد والفزع والرعب .

(٣) يتّفق في بعض الأحايين أن يتنافر زميلان في كل أمر وأن يختلفا في كل شيء وأن يتشاجرا في كل خلاف ومع ذلك تكون بينهما رابطة وثيقة وصلة متينة وألفة دائمة أساسها هذه المشاحنة التي تثير بينهما لا يستغنيان عنه وعادة لا تتم سعادتهما إلا بها ودعامتها اذا استراحا فترة من المشاحنة اتفاقهما في أمر واحد كالسخر بمن حولهم من الناس

(٤) كان في طريقنا حانوت على بابه صنان وقد علمتني أمي أن أراهما يبتسمان اذا أحسنت

السلوك ويعبسان اذا أسأت وكانت أمي تقول : اعمل خيراً تبتسم لك الدنيا — وتوحي ابتسام المتصنعين وعبوسهما من الايحاء النفسي ولكنه مؤسس على حقيقة وهي أن المرء اذا كان راضياً عن سلوكه وعمله سُرَّت نفسه فتنعكس أشعة سروره على مرآة الدنيا .

(٥) قالت بلقيس : إن سكرة النزع تسري في وصال جسمي ليلاً فان الجوف أو النوم لذة في بعض النفوس أو في بعض الحالات وهذا يذكرني قول المتصعلكين الرحالة المستكشف وقد أوقعه أسد على الأرض ووضع قدمه عليه وكاد يفترسه ويقضي عليه لولا أن رجلاً قتل الأسد فقال المتصعلكون إني كنت أشعر بذهول لذيذ من الخوف ولعلَّ منه اللذة في الخوف من الأساليب التي تحتف بها الحياة في بعض الاحايين وبين الآلام والمصائب. وربما يعتري مثل هذا الذهول كثيراً من الحيوانات التي تكون فريسة وطعمة لغيرها . ويذكرني هذا قول بيرون الشاعر الانجليزي ان من رحمة الحياة أن الانسان لا يستطيع ان يتحمل إلاَّ قدراً محدوداً من العذاب فاذا زاد العذاب أغمي عليه أو هلك وهو في الحالتين لا يحسه — ومما يذكر عن الجنود ان أشد الجروح قد لا تصحبها آلام في بعض الحالات أو تصحبها آلام أقل من آلام الجروح الخفيفة .

(٦) كان في صديق اعتزل العالم وعوَّد نفسه ان لا يفكر ولا يعمل خشية ان يكون لتفكره أو عمله عواقب من الشر يصيب الناس ولا يتوقعه فقلتُ له ان امتناعك هذا قد يجلب الشر أيضاً وليس التفكر والعمل والقول ما يُتشعر عليه مصير الانسان والتحكم في حياته فان حصاة صغيرة تنسلخ من جبل قد تكون لها عواقب كثيرة غير متوقعة وامتناعك عن العمل قد يتخذه أناس طريقاً للخير وللهداية فيقتدون من لا يمتثلها . قال صديقي فلابدَّ إذاً أن يموت الانسان حتى يسلم من عمل الشر . قلت تحذر من قولك هذا فان موتك أيضاً عمل وكل عمل قد تكون له عواقب من الشر غير متوقعة .

(٧) زار جان سرفيان بيت صديقه ادجار ورأى مظاهر الترف والنعيم فشعر بنقص وضاعة وسألته أم صديقه قائلة ما صناعة أبيك ؟ قال مستخذياً انه مُجلِّدٌ للكتب. وأحسَّ بالغيظ والنقمة على أبيه الذي اختصه بكل ما استطاع . ووَدَّ ان لا يراه أبداً من الغيظ والحنق والشعور بالذلة وكل ذلك بسبب زيارة صغيرة . بيت الترف وهي زيارة لا تنفعه

كما فعله أبوه — وهذا يذكرني اعتراف جوزيفين كبير أدباء الألمان انه في أحلام اليقظة كان يجول في خاطره أن أباه ليس الرجل الذي رباه بل ان أمه حملت به سفاحاً من أمير جليل الشأن . ويذكرني أيضاً قصة من قصص جي دي موپاسان مفعم فيها فلاح فقير لرجل غني عقيم وزوجه العاقر ان يتبنيا ابنه وان يربياه وكان جاره قد رفض ذلك مستعزاً بابنه فلما كبر الغلام الذي رُبِّي في النعيم وترعرع وزار القرية ورآه الغلام الفقير المستعز به حقد على أبويه حرمانه من هذا النبتي في كنف النعيم ولعنهما وعجرهما وهما في حاجة اليه في كبرهما — وهكذا الانسان ينسى فضل أقرب الناس اليه اذا غلبته الأثرة والغيظ والحسد والطمع .

(٨) وكان جان غيظاً مُحنَقاً وأحسَّ رغبة في أن يرى إنساناً أو جماداً — أو حيواناً — يُشبع منه نهمة غيظه وكرهه وقسوته — وهكذا الانسان قد ينكل بمن لم يكن سبب غيظه اذا استشرى الغيظ وتملكه الغضب وفارقه الانصاف ونزل الى مرتبة المجنون أو الاجرام أو البهائم أو ما دون ذلك .

(٩) قال الأب مرفيان : تعلَّمْ يا بُنيَّ واشتهر ولا تخشَ عند ما تصير وزيراً أن تجلب لك المعرَّة بوضاعة أصلنا فإنا تختفي أنا وعمتك في قرية صغيرة فغضبت العَمَّة وأبت إلا أن تدبر أمور منزل ابن أخيها عند ما يتعلم ويشتهر ويصير وزيراً وألحت على أن تدير شؤونه وشاحنت أخاها وغادرته كأنما كانت تشاركه في أمر قد حصل أو هو قريب الحدوث وهكذا الناس في حماقتهم يتطاحنون حتى على الخيال أو المحال .

(١٠) قد يتسامح المرء في الاختلاف العظيم اذا اطمأنت نفسه إلى عقيدته او عرف أن خصمه لا يستطيع السمو بفكره والنسامي برأيه اليه كي يلم به ويستوعبه كما كان يصنع الراهب لوجبار مع من ينتقد دينه وعقيدته، ولكنه قد يدركه الغيظ إذا خلط مناقشه ووضعه في طائفة ليس منها وبينهما في العقيدة والطريقة فرق قليل إذا كانت بين الطائفتين منافسة. وهكذا كان يغضب الراهب لوجبار اذا نسبه أحد الناس الى طائفة من الرهبان غير طائفته وكان يقول إن الرجل الذي لا يستطيع التمييز بين الطائفتين لا يستطيع أن يرى النهاية في الدين وهذا يدل على أن العواطف المتقاربة قد تكون أشد تباعداً ونفوراً

بسبب ذلك الخلاف بينهما كما يدل على أن الانسان عريب الخلاف لنفسه فيتسامح في الأمر العظيم ويتجهم في الأمر الصغير في بعض الأحايين

(١١) انك إذا اغتفرت لانسان ذنباً وكان اغتفارك ذنبه على سبيل الاحتقار له والزراية عليه والازراء به والاصغار لشأنه والتهوين من أمره، فانه قد لا يغتفر لك صفحك وعفوك وكرمك إذا كان باعثك على ذلك الازدراء والاحتقار وإذا عرف أن هذا كان باعثك. وهذا بالرغم من استفادته من اغتفارك ذنبه والصفح عنه.

(١٢) قد يثير وقار المهاتب الذي لا يقبل الجدل من الغيظ أكثر مما تثيره ضحكة المخالف الصاخب الذي يقبل الجدل ويقابل الصخب فيه بصخب مثله لأن الأمر قد ينتهي عند ذلك ولا يخلف كتاً ولا قبراً في النفس ما دامت ضحكة المخالف تقابل بضحكة مثلها أو قد تكون معاودة تعديل هذا الخصام الى الألفة والعشرة. أما وقار المخالف الهادىء الذي لا يقبل جدلاً ولا صخباً فلا حيلة فيه ولا سبيل لدفع لؤمه وقد يسبب التقطيبة والوحشة طول العمر.

(١٣) اذا ثار ثائر وخاب وهزم عُدَّ مجرماً عاصياً. أما إذا انتصر ونجح عُدَّ محاكماً شرعيًّا — قوله الشريعة والقانون وأعداؤه هم المجرمون — فلو أن بريليوس قيصر هزم بعد عبوره نهر روبيكون في زحفه على روما، ولو أن نابليون بونابرت خاب وقتل يوم انقلاب برومير عند ما ثار على الجمهورية الفرنسية الاولى لعُدَّا الآن من المجرمين ولم تعرف شرائع وقوانين باسمهما

(١٤) في نفس الأحايين تستغل حكومة السلطة في الحكم فيخاف الناس أن تسقط إذا تعوَّدوا نقد الحكومات المستقلة فتأتي بعدها حكومة شرٌّ منها. وهذا يذكرني قصة امرأة عجوز كانت تذهب كل يوم الى بيت العبادة كي تدعو ربها أن يطيل حياة الطاغية الذي كان يحكم بلادها سرفوزة، فعلم بها وأرسل في طلبها فلما مثلت بين يديه سألها لأي أمر تدعو له كل يوم بطول العمر. فقالت أخشى إذا مت أن يخلفك من هو شرٌّ منك. ويذكر هذا بقصة الجريح الذي سقط الذباب على جروحه وامتص دمه فشفق عليه رجل وأراد أن يبعد الذباب عنه فرجاه أن يتركه لأن الذباب الواقع على جروحه كان قد شبع من دمه فاذا أزاحه عنها حلَّ محله ذباب لم يرو من دمه بعدُ فيكون هو الخاسر

(١٥) كانت فلسفة روسو مؤسسة على أن الانسان بطبعه مخلوق خيِّر طيب فاضل وهي عقيدة لا يعتنقها إلاَّ من لا يستطيع الضحك ولا الابتسام. وقد ظهر تناقضها عندما اعتنقها سادة الثورة الفرنسية الأولى وحاولوا تطبيقها فقد كان روبسبير يحسب أنه من المستطاع أن يبلغ الانسان كمال الفضيلة فاشترك في حكم الارهاب كي يبلغ به حد الفضيلة فاضطرَّ الى الاكثار من استخدام القتل عقوبةً. وهكذا كل سياسي عظيم التفاؤل بهذه العقيدة يبدأ بقتل بعض الناس، ولو تُرِكَ يصنع ما يشاء لقضى على الناس جميعاً أو على أكثرهم.

(١٦) من العجيب أن كثيرين يضعون الانسان في فصيلة تشبه فصيلة القرود ثم يغضبون إذا رأوا خصاله تشبه خصال القرود.

(١٧) إنما كتبت قصة الثورة الفرنسية كي أوضح أن الانسان لم يبلغ من الكمال حدًّا يمكنه من أن يكون عادلاً اذا عالج بدعوى مناصرة الفضيلة. فالرحمة إذاً أقرب الى العدل ولن يتم عدل الانسان اذا نظر الى جانب العدل وحده وأهمل جانب الرحمة — ولكن الناس تثور وتقتتل وتُرتكب الموبقات بدعوى مناصرة الرحمة أيضاً وإزهاق ما يخالف مبدأها.

(١٨) قرأ لنا معلمنا المسيو كروتّو قصة مارسياس الانسان الحيواني الذي أراد أن يناقش أبولون رب الفنون الجميلة فقهره أبولون وقتله وسلخه فاوتست ووجت ولم أعرف كيف أسوِّغ قسوة رب الفنون الجميلة اذ سلخ خصمه، وأخلِّق بمن كان رب الفنون الجميلة أن يُنزِّه نفسه عن هذه القسوة الشنيعة وأن ينزه الناس عن قدوتها، وإلاَّ فبأيِّ شيء تكون تلك الفنون جميلة اذا لم ينزه نفسه. ولكن عند ما تذكرت أن سورة مارسياس تشبه في خيالي صورة معلمنا كروتّو الذي كنت أمقته سهل عليَّ أن أغتفر لأبولون قسوته — وهكذا الانسان يسوِّغ الشر اذا وقع بغيره من يكره ولا يرى القسوة قسوة اذا قاساها من يعادي أو شبيه من يعادي.

(١٩) أستطيع أن أقول قول روسو أني لا أكذب إلاَّ لتأييد الحق — واذا

استرسل المرء في هذا المنطق استطاع أن يسوّغ كل شر بدعوى تأييد الحق أو تأييد ما يخال انه الحق وإن لم يتضح له ولم يتحقق بما لاشك فيه أنه الحق .

(٢٠) كان من سوء حظ جان مرفيان وهو عائد الى منزله أثناء ثورة الكومونيون في باريس أن ظن بعض الثوار تقدمه امرأة ورأى الثوار أن جنود الحكومة يقتربون فأرادوا الفرار فقالت المرأة تقتل هذا أولاً وأشارت الى جان ولم تكن لتعرفه ولم يكن له ذنب بل كان من حزبها أو يميل إليه . ولكن المرأة استهواها حبٌّ سفك الدماء فأطلقت عليه الرصاص ووقفت ترقص على جثته — يعدل هذه المرأة أو ظلمها مثل عدل أو ظلم كثير من الناس وان ظهرا في مظاهر أخرى إذ أن من عادة الناس أنهم يتكلون أولاً ثم يبحثون وقد لا يبحثون

(٢١) كتّاب الاعترافات يغالطون أنفسهم ويغالطون الناس إذ يزعمون أنهم لم يخفوا عن القراء شيئاً من حياتهم وأعمالهم وخصالهم وخطرات نفوسهم . إذ أن هذا الاعتراف الكامل أمرٌ لن يستطيعه انسان ولم يستطعه جان جاك روسو بالرغم من صراحته في اعترافاته وذم نفسه والاساءة اليها .

(٢٢) أعظم فائدة تفيدها حقائق الحياة انها أساس يبني الناس عليها آمالاً للحياة ليست فيها .

(٢٣) ما يجلي أغتر للحياة آلامها أني قرأت قصة لكاتب وصف فيها أناساً لا يهتمون ولا يحزنون ولا يألمون ولا يشتهون ولا يحبون ، فرأيت أنه قد محا السرور والسعادة والجمال والشعر والفنون عند ما محا آلام الحياة ومكارهها .

(٢٤) كنت في صغري أحب أن أتودّد إلى أقراني فيعتريني الحياء فلا يكون جزائي إلاّ السخر ، لان الحياء يبعث على الاحجام عن التودّد والارتباك والتردد فيه فلا يكون نصيب صاحبه إلاّ السخر منه والانصراف عنه — وقد يخال ما به الكبر والصَّلَف والزهد في الناس والتعالي عنهم — وهذا اذ لاقى من هو أكثر منه جرأة فاذا قابل من هو في سن حياته كان نصيبه أيضاً الاهمال والانصراف عنه . فالناس كثيراً ما يسيئون الظن بصاحب الاحتجاز والاحجام عن التقرّب اليهم من حيائه وخشية أن يكون نصيبه في

تنفر به منهم النفوس منه أو الاهانة أو السخر أو الا دراء ، فكم منع الظرف من هذه الأمور من مودات وألفة وتفاهم . والناس معذورون إذ ان صاحب الحياء يشعر بنقص من أجله وقد يستره بالكبر، وقد يغالي فيستره بالخشونة والتجهم في معاملة الناس .

(٢٥) ربما كان أهد الناس اضطهاداً الناس الذين قاموا آلام الاضطهاد وثاروا عليه ولكن معاناتهم له لا تعيظهم . والمعروف ان الذين يريدون ان يغيروا نظم الحياة كما يشاءون يأبون على غيرهم ان يريدوا ما أرادوا وقد يغالون في ذلك .

وقد كان أحد أعضاء مجلس الشيوخ يرتعد اذا رأى شباناً في مظاهرة سلمية ويود أن يستخدم الشرطة النار والسلاح لمنعها . وهذا الشيخ كان في شبابه عضواً في كل جمعية سرية ثورية ، وزعيماً في كل ثورة . ومن الأقوال المعروفة : أنك إذا أردت أن يتخلى ثائر عن حدته فاجعله وزيراً فانه يصبح من المحافظين ، إذ أن مسؤولية الحكم ونظرته الى الأمور تدعوانه الى أن يرى من الامر ما لم يكن يرى قبل قيامه بأعباء الحكم .

(٢٦) كثيراً ما يحدثك محدث فيقول سنرى قريباً تغيراً كبيراً في نظم الحياة وسننها ولكن الامور لا تتغير إلا ببطء – وما دام الانسان إنساناً فإن طبائعه وغرائزه التي نشأت ونمت ورسخت في مئات الآلاف من السنين لا تتبدل إذا تبدلت إلا ببطء. فمثل الانسان إذا غير نظام حياته وحسب أنه غير طباعه أو نسخها مثل من يغير ثيابه ويحسب أنه قد غير نفسه وليس معنى ذلك أن نظم الحياة لا يحسن أن تتغير فقد قال الناتول فرانس في مكان آخر أن نظم الانسان وشرائعه وقوانينه كثيراً ما تكون مؤسسة على القسوة والظلم والمحاباة ولذا لم تنظف من حين لآخر كانت كالحجرة المظلمة المهملة تحت الأرض تربى فيها الحشرات وتعزل فيها العناكب خيوطها وبيوتها، فليس لها إلا التكنسة .

(٢٧) الغريزة في الفن كالغريزة في الحب هما الدليل الذي يعتمد عليه . فقد فرق الانسان غريزته في الفن كان كالسمك الذي أخرج من الماء لا تطول حياة فنه بعده .

(٢٨) إن الأفكار العالية على الجنود وإن كان بينهم أبطال أفكار بعيدة عن البطولة ،

وكذلك زعامهم من الاقدام على الصعوبات خوفاً من أن يبيدهم ما تكبدوا وولوا الأدبار أو مثل خوفهم من العار والتعيير إذا فروا وجبنوا، أو مثل اتقاء العواقب المتنوعة غير المعروفة للهزيمة، إذا انهزموا خوفاً، أو مثل الخوف من الحكم بالاعدام على من يفر هرباً، وحتى مثل الخوف من الخوف. فان الخوف من الخوف قد يؤدي إلى مظاهر الشجاعة والبطولة أو لأن الانسان سريع الاستجابة للايحاء، فاذا وضعت في يده سلاحاً أحس بميل إلى إدخاله في بطن سواه.

(٢٩) كثيراً ما تصدر عن المرء أعماله وأقواله كأنها آتية إليه من خارج نفسه، وانها هي من استجابته لأمور الحياة واندفاعه في تيارها. ومن أجل ذلك كثيراً ما يكون المرء أعظم أو أحقر من نفسه أي من المألوف منها في حياته.

(٣٠) من فوائد العمل أنه يصرف المرء عن التفكير في آلام حياته وعن الأفكار التي قد تستحوذ على العقل والنفس وتستعبدها فتكون مثل الجنون وهو يشيع الغرور في الانسان وقد يوهمه القدرة على مغالبة القدر ويلفت المرء عن مقدار عجزه في أمور كثيرة.

(٣١) صديقات عقبة بجريه أرغمنها على ترك زوجها وكانت قد خانته وتبلت وهي تحتقره في سرها، لأنه هو المظلوم، أن تغتفر له لومه إياها وأن تصالحه وتبقى معه. ولكن صديقاتها أبين إلا أن تترك بيته صيانة لكرامتها بعد أن ضحت في شرفها، وكن يظهرن مؤازرتها ومناصرتها وإنما كان مقصدهن الذي أخفينه رغبتهن في التخلص منها وهي ثقيلة عليهن وعناء، وقد تضجرن برعونتها وحماقتها، فكان كيدهن طبعاً يلبس لباس المناصحة والمؤازرة، كما انهن كن يكرهن زوجها لأنه كان رجلاً مفكراً وكن يسترن به النظر من أجل ذلك.

(٣٢) إن خلق عالم جديد ربما كان أسهل على المرء من فهم نفسه فهماً كاملاً على سبيل التقصي من غير أن يفوته شيء من حقائقها.

(لها بقية)

ع. ش